فلنصبح فراعنة

لابد أننا نضيق بأنفسنا عندما نقرأ أن الفراعنة قد عرفوا كل شيء وجربوا كل شيء ، ووضعوا أنوفهم فى كل شيء ...

فنحن نضيق عادة لأننا نتحدث عن أنفسنا ، ولأننا نجعل عصرنا الذهبى وراءنا ، فإذا تقدمت الشعوب اليوم ، ولم نلحق بهم ، فإننا نقول : كان أجدادنا أسبق من الحضارة الإغريقية والرومانية وبابل وآشور .. كأننا نعتذر عن تخلفنا الحاضر ونعتصم فى أمجاد الماضى تماماً كالذى يبرر كسله وفقره ، بأن أخاه غنى مشهور .. وأن أحد أجداده كان زعيماً فى الثورة العرابية .. أو قائداً ضد الهكسوس !

وهذا الضيق طبيعى ، ولكنه مع الأسف ظالم ، ظالم لأنفسنا . فالفراعنة قد عرفوا أشياء كثيرة جداً . وليس هذا رأينا ، وإنما هو رأى المؤرخين الأجانب ، والمستشرقين وعلماء الذرة والفلك والأطباء .

بل إن بعض العلماء المعاصرين أصابته الدهشة ، فتصور أن كائنات من كواكب أخرى أكثر تطوراً منا قد هبطت إلى أرض مصر ، وأن هذه الكائنات ساعدت الفراعنة على بناء الهرم، وعلى تحنيط جثث الموتى ، وعلى إجراء العمليات الجراحية ، واختراع مواد التجميل وهندسة الرى واقتصاديات الزراعة .. وأنه من المستحيل أن يكون الفراعنة قد ابتكروا هذه النظريات والتطبيقات العملية لنظريات لم يعرفها الإنسان إلا حديثاً ، دون أن تكون هناك عقول أكبر من عقول الفراعنة .. أى دون أن يكون سكان المريخ أو الكواكب الأخرى قد هبطوا

إلى الأرض. واختاروا وادى النيل وتركوا بصماتهم العملية على معابده ..

حتى السينما ! لقد صدر كتاب فى أمريكا أخيراً يؤكد أن الفراعنة هم أول من اخترع الكاريكاتير .. وأن الكثير من الرموز التى فسرها المؤرخون تفسيراً دينياً ليست إلا قصصاً فكاهية .. وقصصاً تبعث على الضحك والسخرية من رجال الحكومة ومن رجال الدين ومن الشعب أيضاً .

فهناك قصص القطط والكلاب ، ومعارك القطط والفئران التى ينتصر فيها الفئران عادة ، وهى نفس القصص التى نراها على الشاشة الآن عندما ينتصر الفأر الضعيف الذكى على القط القوى الغبى : توم وجيرى وميكى ماوس ..

وهناك قصص القرود والحمير .. وهناك رسومات فى متحف القاهرة ومتحف لندن ومتحف تورينو تفسر لنا قصة : ياطالع الشجرة هات لى معاك بقرة ؛ ففى الرسومات الفرعونية توجد عجول البحر فوق الشجرة ، وتوجد القطط والكلاب فى الماء ، وتوجد فرق موسيقية من الأسماك .. وتوجد محاكم بين الأسود وقضاتها من الأغنام .. لم يبق إلا شىء واحد هو : أن يجد الأمريكان والروس عندما يهبطون فوق القمر جثة محنطة لمصرى قديم فى أحد مراكب الشمس !

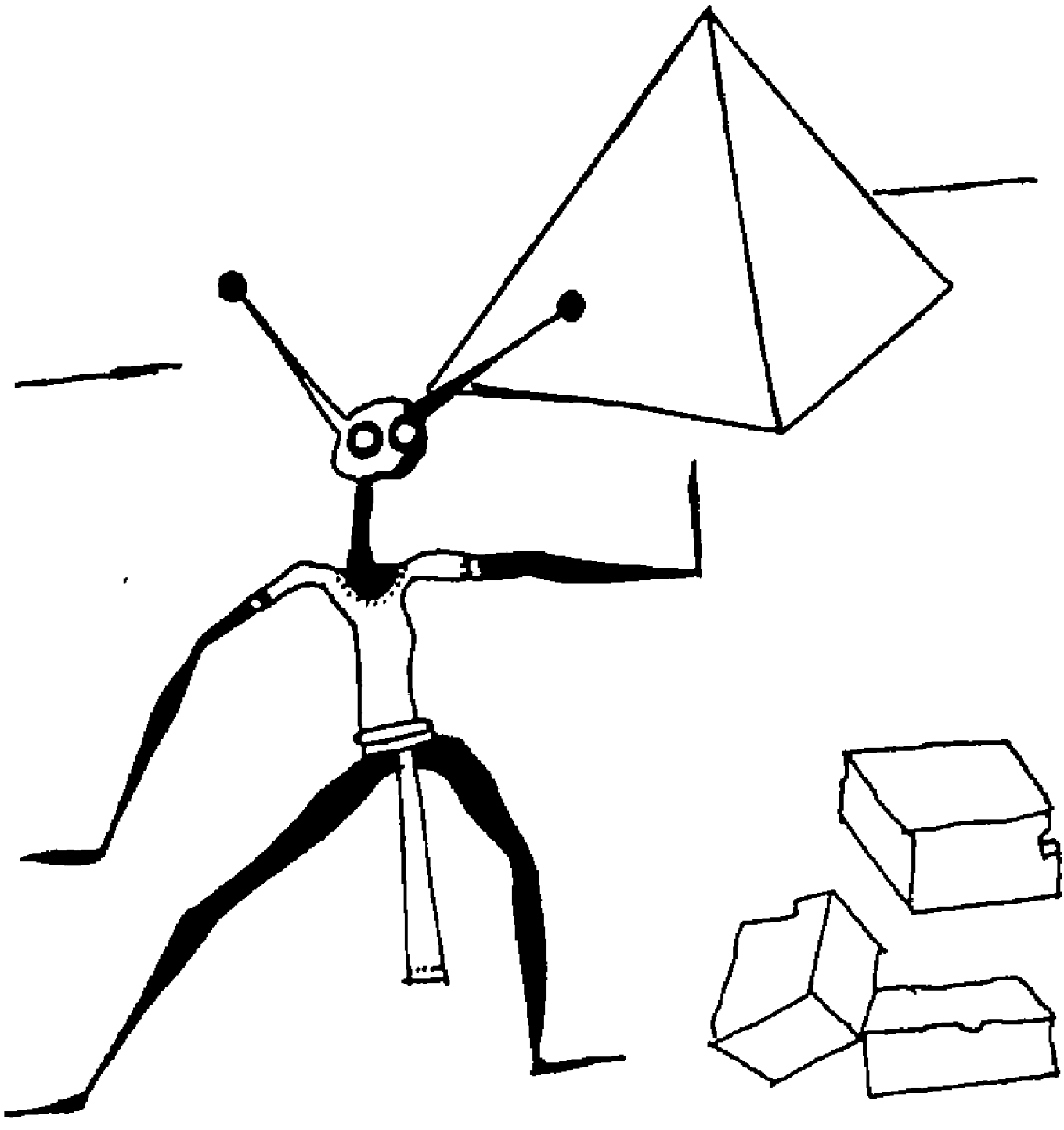

فلنصبح فراعنة

كانت
عربة الرش معجزة

المكتشف الإنجليزى « كوك » عندما نزل إلى جزر هاواى انبهر منه سكان الجزر . فقد رأوه طويلا أبيض الوجه أزرق العينين أصفر الشعر . ولكن الذى جعلهم يركعون ويسجدون ويبكون عند قدميه أنه كان يرتدى البنطلون . وليس البنطلون هو الذى هزهم وخلبط عقولهم . . وإنما جيوب البنطلون . . فقد كانوا يظنون أن كوك عندما كان يضع يديه فى جيوبه قد وضعهما فى بطنه .. فإذا أخرجهما يندهشون .. كيف استطاع أن يخفى يديه فى بطنه ثم يعيدهما دون أن تنزف الدماء أو يموت . . وأمام هذه المعجزة العلمية استسلم سكان الجزر الجميلة !!!

ودخل الاستعمار البريطانى من بنطلون جيمس كوك !

والبنطلون الذى يراه الطفل الآن شيئاً عادياً .. وأحياناً لا يعجبه ، كان يراه سكان جزر هاواى إحدى المعجزات !

والطفل الآن يرى أن السينما أو التليفزيون شيئاً مألوفاً . بل إنه يرى أن التليفزيون الموجود فى البيت أبسط وأكثر سذاجة من التليفزيون الموجود فى سفن الفضاء .. فى حين كان الناس ينظرون إلى « خيال الظل » أو الأراجوز على أنه إحدى المعجزات .. وأحد الشعراء العرب يسجل هذا المعنى منذ سبعة قرون فيقول فى شعر ركيك :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة
لمن كان فى علم الحقيقة باق

شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها
سواه ، وأشكالا بغير وفاق

تجيء وتخفى لعبة بعد لعبة
وتفنى جميعاً والمحرك باق !

والعالم المصرى رفاعة الطهطاوى عندما ذهب إلى باريس رأى منظراً هز كيانه ، فصلى لله ركعتين ، وطلب منه أن يهدى مصر إلى مثل هذا الاختراع العظيم – الاختراع الذى رآه هو عظيما لم يكن سوى عربة الرش ! فقد كان الناس فى مصر يرشون الشوارع والميادين بالجرادل وكانت عملية مرهقة .. أما عربة الرش فقد كانت شيئاً رائعاً !

وسوف يجيء اليوم الذى ينظر فيه الناس إلى سفن الفضاء على أنها لعب أطفال .. تماماً كما ننظر الآن إلى السيوف والرماح ، ولكن سيظل هناك شيء صعب يحلم لإنسان باختراعه ولن يقوى على اختراعه .. وإذا اخترعه فإنه سوف يخترع شيئاً آخر يدمره .. ذلك الشيء هو حب الإنسان للحياة .. إن الإنسان قد كره حياته وحياة غيره .. لقد كره نفسه على هذه الأرض . وليست رحلات الفضاء إلا محاولات بدائية للهجرة من الأرض !

لماذا يدفن الزوج أعصابه

ربما كان الفارق بين الزوج والعاشق الولهان هو أن الزوج هو البقية الباقية من العاشق بعد أن اقتلعت أعصابه .. أما العاشق فهو الزوج الذى ماتزال فيه حلاوة الروح !

وإلا فما معنى أن تجىء سيدة وتشكو من زوجها وتقول لى : إنه لم يعد يمسك يدى . إنه لم يعد ينظر فى وجهى . إنه لم يعد يسمعنى .. إنه لم يعد .. و لم يعد .. إلخ .

وأنشغل أنا عن الكلام بالنظر إلى وجهها : دموعها لا تدل على أنها حزينة . وإنما فقط على أنها « مندمجة » فى دور السيدة الحزينة .. والأحمر والأبيض فى وجهها يدل على أنها جلست أمام المرآة ساعتين على الأقل وهى تضع الانسجام اللونى بين ملامحها وملابسها وحذائها وعقدها وحقيبتها وأنها تستفيد كثيراً من المجلات الفرنسية التى احتفظت بواحدة منها عندما جاءت لزيارتى .. فهذه السيدة بصورتها هذه هى مظاهرة تأييد لنفسها. مظاهرة تؤكد أن لديها أدباً وثقافة. وأنها قادرة على لفت نظر أى رجل آخر غير زوجها . وقادرة على أن تؤكد أنه فعلا صاحب ذوق ولكنه بليد الإحساس ..

وسألتها متى تزوجته ؟ فقالت ببعض شفتيها : من عشرين سنة ..

كأن هذه العشرين سنة شىء قليل فهى ليست إلا المرحلة العشرينية الأولى من زواجها السعيد !

وعلى سبيل إقناعى بأن زوجها لا يعرف قيمتها روت لى حوادث

شخصية جداً فى حياتهما ، وكيف أنها استطاعت أن ترتفع بمستواه من الأرض إلى السماء ، وكيف استطاعت أن تجعله بنى آدم ، وكيف أنها احترمته فى حين كان كل الناس ينظرون إليه باحتقار .. ثم بعد هذه العشرة الطويلة ، وبعد هذه الأعمال التى قامت بها من أجله ، وبعد تضحيتها بشبابها وبأهلها وبمستقبلها .. وبعد ..

وقاطعتها : وبعد هذه الفضيحة ؟ وحاولت السيدة مرة أخرى أن تؤكد لى أن هذا حديث خاص بى ، وأنها لم ترو هذا لأحد ..

ولم أصدقها ، فلا يوجد حديث خاص عند المرأة ، وليست هناك خصوصيات ، فكل سر عند المرأة موجود عند صديقاتها ، وكل ما تخفيه المرأة عن الرجل تكشفه لألف امرأة أخرى . وعذرت زوجها وتمنيت ألا تكون لها مرحلة عشرينية أخرى ..

وعرفت من بعض الأصدقاء أن هذه السيدة ترددت عليهم أيضاً ، وأنهم استمعوا إلى نفس القصة .. وعرفت أن الزوج رجل مهذب ومثقف ، وأنه نموذجى ، وأنه بطل قصة حب عنيفة شريفة .. وأنه يستحق الرثاء .. أما أنا فأعتقد أنه يستحق الإعجاب .. فقد قرر أن يدفن أعصابه ليعيش مع أولاده السبعة !!

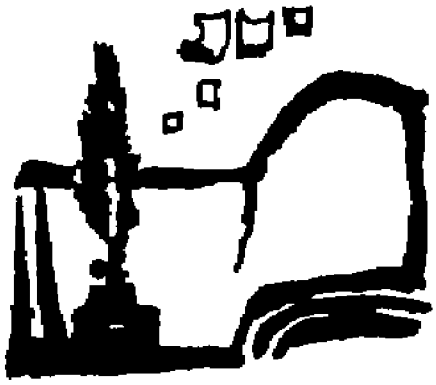

جمال الفن

بطلة فيلم « صوت الموسيقى » ليست جميلة أبداً .. بل يمكن أن نقول إنها دميمة . صحيح هى شقراء رشيقة ذهبية الشعورزرقاء العينين نحاسية البشرة ، « معيزية الساقين » ولكن صوتها من السماء !

وأمام هذا الصوت ، وتحت رحمة موسيقاه ، وفى جمال ابتسامتها وطيبة قلبها ، وهى تقوم بدور المربية الراهبة ، بعد أن دهمها الحب ، لا يسعك إلا أن تحنى قلبك فى صدرك ، وتنسى أنها ليست جميلة !

إن أم كلثوم نفسها ليست جميلة ، ولكن من الذى يستطيع أن يرى ملامح أم كلثوم وهى تغنى . إن أحداً لا يراها بوضوح فصوتها يخلق لك سحباً وردية وبين لحظة وأخرى تنزل على خدك دمعة ..

إن عبد الحليم حافظ ليس جميلا : صوته فقط . إن يدى عبد الحليم وأصابعه أشبه بأيدى الذين يشتغلون فى قطع الحجارة .

إن فيروز ليست جميلة .. إنها نحيفة جافة ، وأنفها أدق من صوتها ، ولكن صوتها يجعل للدنيا لمس الحرير ولمعان الفضة !

إن محمد قنديل يصلح أن يكون جزاراً بكرشه وذراعيه الغليظتين . ولكن صوته ناعم رقيق ملىء بالأسى .

ومحمد عبد المطلب ابن البلد بحاجبيه الجامدين ووجهه الخالى من أى تعبير لا يلهمك بأنه أحسن مطرب شعبى ..

بل إن هناك ممثلات عالميات لسن جميلات . ولكن الإطار الجميل والمعانى الجميلة هى التى تجعلنا ننسى هذا الوجه أو هذا الجسم الذى

هو وسيلة لنقل هذه المعانى . صوفيا لورين مثلا : فمها كبير جداً وطويلة جداً وطريقتها فى الكلام « بلدى » جداً إذا استمعت إليها باللغة الإيطالية .

كلوديا كاردينالى ليست جميلة . أذناها كبيرتان ، وأنفها مربع وشعرها مستعار ..

سليفانا مانجانو بطلة فيلم « مرارة الأرز » . صوتها مثل صوت كتكوت خرج من البيضة فوراً . ولذلك فأنت لا تسمع صوتها فى السينما وإنما صوت واحدة أخرى .. لقد أصبح الصوت كالباروكة يمكن أن يستعيره أى إنسان .

أنا مانيانى أعظم ممثلة إيطالية على الإطلاق .. عيناها تشبهان عيون بنات الصين ، وصوتها يشبه صوت واحدة أدمنت شرب الشيشة ، ولكن فى الإطار الفنى الجميل ، وفى الجو المشحون بالمعانى ننسى الفم الكبير والقوام القصير .. وننسى حتى أنفسنا !

طفل يحبو فى عقولنا

فى داخل كل رجل يوجد طفل . والمرأة هى أول من يهتدى إلى وجود هذا الطفل . وتحرص فى نفس الوقت على أن يظل الرجل طفلا . فهى تحب أن يبقى رجلا لحمايتها . وأن يبقى طفلا ليظل فى حاجة إليها . وكل إنسان يحاول أن يتستر على هذا الطفل . ولكن مخاوفنا وآلامنا هى التى تكشفنا فتجعلنا أطفالا صغاراً . ونتصرف كأننا صغار ونعزو كل أخطائنا إلى الطفل الذى يحبو فى عقولنا أو فى قلوبنا !

ولكن حياتنا العملية تحتم علينا أن نكون فى غاية الرجولة والخشونة ..

وعلم النفس ينصحنا بأن نصارح أنفسنا أولا بأول . وهذه المصارحة هى التى تجعلنا نتحمل أخطاء هذا الطفل . وتجعلنا نتغلب على مخاوفه . وتجعلنا نحول دموعه إلى مجرد آهات . ونحول آهاته إلى سخرية .

ولكن ليس كل الناس قادرين على هذه المصارحة . وليس كل الناس قادرين بعد ذلك على أن يتخلصوا من آلام الطفولة . وقد حاولت كثيراً . ولكنى لم أفلح . وظللت طفلا أمام حوادث كثيرة مؤلمة فى طفولتى . لم أفلح ويبدو أننى لن أستطيع .

فمثلا من عشرين عاماً كنت أتفرج فى « مدينة الملاهى» على الحصان الذى تركبه فارسة إنجليزية ثم تقفز به فى حوض ماء من ارتفاع كبير. ولسبب لا أعرفه الآن تطلعت إلى الحصان وأحسست أنه حيوان نبيل . فيه كبرياء . وفيه رجولة . وفيه أصالة . ولم يعجبنى

أبداً أن تركبه هذه الفارسة . ثم تقفز به من الماء ، وتظل على ظهر الحصان طول الوقت . وقبل أن يصل الحصان إلى حوض الماء تقفز هى بعيداً عن الحوض ويصفق الناس للفارسة . أما الحصان الذى يسقط فى الحوض ، فينهض واقفاً . ويهرب الناس حتى لا يبللهم بالماء . وفى ذلك اليوم ملأت عينى من الحصان . ورأيت الفارسة تركبه وتصعد به فى مواجهة الضوء تماماً كما فعل الإسكندر عندما ركب حصانه فى مواجهة الشمس . ثم قفز الحصان فى حوض الماء وقفزت هى بعيداً عن الحوض . ولم ينهض الحصان . لقد مات !

وعندما أحس الناس فعلا بالمجهود الهائل الذى يقوم به هذا الحيوان وأحس الناس أنهم ظلموه . وأنهم كانوا يصفقون للفارسة وينسون الحصان كأنهم يصفقون للأقمار الصناعية . وينسون الصواريخ الملتهبة التى ترفع الأقمار إلى مداراتها البعيدة .

أما أنا فقد أحسست أن الحصان لم يمت . إنه انتحر . ليصبح شعور الناس بالذنب أعمق .. ولم أنم تلك الليلة إلا ونامت دموعى على خدى .

وأمس رأيت حصاناً تحت عجلات سيارة ، وانفجر الطفل باكيا فى عينى . ولم يفلح عقل الرجل ولا نصائح علم النفس أن تعيدنى إلى رجولتى .

ويظهر أن علم النفس عاجز عن إسكات الأطفال الذين يعيشون فى أعماقنا !

حمارة الإمبراطورة

من المناظر المألوفة فى مواكب أباطرة الرومان أن نجد خمسين حمارة وأحياناً مائة حمارة . وهذه « الحمارات » خاصة بصاحبة الجلالة الإمبراطورية شخصياً . فهى تستخدم ألبانها فى الاستحمام . ولبن الحمارة يجعل البشرة ناعمة . وجلالة الإمبراطورة حريصة على أن يكون اللبن طازجاً ، وعلى ألا يكون مخلوطاً بالماء . وعلى أن يكون بعيداً عن أيدى المتنافسات فى غرام الإمبراطور . فلا يضعن فى اللبن مادة سامة !

والملكة بلقيس كانت تستخدم لبن الحمارة أيضاً . وغيرها من النساء كن يستخدمن لبن الحمارة وأحياناً لبن الأشجار فى دهن الوجه والجسم .

و لم تتغير المرأة الملكة . أو المرأة العادية . من أقدم العصور حتى الآن .. وربما كان التغيير الوحيد الذى حدث هو فى صناعة الألبان فقط .

فقد اختفت الحمارة ، وظهرت بدلا منها المصانع ، واختفت طشوت اللبن وظهرت الزجاجات الصغيرة الأنيقة ، وأقلام الشفاه الذهبية وعلب البودرة الفاخرة .

وإذا كان الجمال هبة من عند الله ، فإن المرأة تحرص على أن تبدو موهوبة ، وذلك بأن ترسم جمالها .. تصنع جمالها . فإذا كان الله قد أعطاها وجهاً ، فإنها قادرة على أن يكون لها وجه آخر وكلما تقدمت المرأة فى السن ، صرخت الألوان فى وجهها ، وكأن هذه الألوان الصارخة هى إعادة لكتابة شهادة ميلادها وحذف لأرقام السنين !

والجمال هو مملكة المرأة . وكل امرأة تحرص على أن تضع التاج على رأسها ، وعلى أن تكتب خطاب العرش بالأحمر ، وتجففه بالأبيض وتوقعه بالأسود . كل يوم .. كل يوم .. فأى وقت عند المرأة هو وقت للتجميل ، ولو حكموا عليها بالإعدام وسألوها قبل أن تموت ما الذى تريده لطلبت قلم شفايف . إن كليوبطرة نفسها قد وضعت الأبيض والأحمر والأسود قبل أن تموت !

وإذا كان الجمال مملكة المرأة ، فإن هذه المملكة لها ملوك حقيقيون هم ملوك الأزياء والموضة والجمال . ولهؤلاء الملوك سفارات فى كل مكان : فصالونات الحلاقة ، ومحلات الأزياء ، ومعاهد التجميل هى سفارتهم . وهذه السفارات تقبض ألوف الملايين من الجنيهات كل عام . هذه الملايين يدفعها الرجل دون أن يدرى .. أو وهو يدرى !

أنا :
إحدى صورى

تعال أى يوم وستجدنى سعيداً جداً بلقائك ، مع أننى لا أعرفك وليس هناك مبرر لسعادتى بك .

وهنا أتوقف . ما الذى يجعلنى أبدو هكذا سعيداً ؟ لا سبب ! ما الذى يجعلنى أرحب بك مهما كنت مشغولا ؟ لا سبب . ولكنى أقوم بدور الرجل المهذب . أقوم بدور الذى يخفى متاعبه ومشاغله . وإننى أقوم بدور الرجل الذى يرى أن همومه تخصه هو ، وأنها لا تخص الآخرين .. وفى نفس الوقت أقوم بالمساهمة فى الصورة الجميلة الكاذبة وهى أننا معشر الكتاب من طراز آخر من الناس .. نحن فوق .. بلا متاعب ولا مشاكل ولا هموم ولا قلق . وليست هذه حقيقتى ! ولا حقيقة أى إنسان تراه أو تقابله فى البيت أو فى الشارع ، وإنما هى صورة أنيقة لأعماق . إنها صورتى وهذه الصورة قد أفرزت ألوانها من داخلى ، وعلقتها على كتفى ، وتواريت وراءها . فأنت لا ترانى . وإنما أنت ترى إحدى صورى .. أجمل صورى !

فأنا لست سعيداً .. ولكن ظاهرى السعادة .. أو « متظاهر » بالسعادة أ وكل إنسان كذلك .. أنت فى أى وقت لست إلا صورة من صورك ، لوحة من لوحاتك .

ونحن نطلب من الناس أن يكونوا صوراً لأنفسهم .. وألا يكونوا على حقيقتهم ، لأن حقيقتهم تضايقنا ، ولا تهمنا .

مثلا .. الكمسارى .. فى الأتوبيس أو فى المترو .. نحن جميعاً نطلب منه أن يكون مبتسما دائماً . إذا أخذ ثمن التذكرة يكون رقيقاً ،

ولابد أن يشكرنا على ذلك ، ولابد أن تكون معه فكة ، ولابد أن يعرف المحطة التى سوف ننزل عندها . مع أننى لست الراكب الوحيد من أول الخط ، ولا الراكب الوحيد طول النهار . ولا طول الشهر ونحن ننسى أن هذا الكمسارى لا يختلف عن الركاب إلا فى شىء واحد هو أن المواصلات ليست مشكلة بالنسبة له . ولكنه أب أو زوج ، وله مشاكل أى أب وأى زوج . وله هموم ومشاكل أى أب وأى زوج . له همومه وله متاعب ومن ضمن آماله فى الحياة أن يتحول من كمسارى إلى راكب .. وأن يركب هو أيضاً صاروخاً أسرع من الأتوبيس . هذا الصاروخ فى خياله .. وهذا الصاروخ يحلم بأن ينقله فى يوم من الأيام إلى محطة اختيارية اسمها : الستر ...

وأنت تقوم بدور الأب .. وتقوم بدور الصديق .. وتقوم بدور الموظف المطيع ، وبدور الرئيس الصبور .. وبدور الطبيب الذى يملك المعجزات ..

ونحن فى الحقيقة نعرض على الناس « صورنا » . . نعرض على الناس أحسن ما عندنا .. والناس يعرضون علينا صورهم ولوحاتهم التى رسموها سراً .. فحياتنا هى هذا العرض الحى ..

نحن الفنانون واللوحات أيضا .. ونحن المؤلفون والممثلون والمخرجون أيضاً ومن المؤكد أن أى إنسان عندما يتهم إنساناً بالكذب أو بالنفاق أو بالشر لا يتهمه وإنما هو فجأة قد رأى الصورة الحقيقية التى يخفيها وراء هذا العمل الفنى الزائف !

هذه الحاسة السادسة !

كل واحد يقول لك : أنا إحساسى كده .. معناه أنه قد عطل حواسه الخمس . وأنه يعتمد على حاسته السادسة . أى يعتمد على شيء خاص به . يعتمد على مصدر للمعلومات لا تعرفه . وهو شخصياً لا يعرفه . الذين يعطلون حواسهم الخمس هم أصحاب العواطف الكبرى : الحب الكبير ، أو الكراهية العظيمة .

فالعواطف الكبرى مثل العواصف يواجهها الناس بإقفال النوافذ والأبواب وأزرار الملابس . من وراء هذه المنافذ المقفلة ينظر الناس إلى العالم الخارجى بعيون أخرى ، ويسمعون بآذان أخرى .. أى بهذه الحاسة السادسة ..

والمرأة من أكثر الناس اعتماداً على حاستها السادسة ، لأن تجاربها ليست كثيرة . وإيمانها بالعقل ليس كبيراً . فهى تعتمد على عواطفها ، وعواطفها تهز الدنيا أمامها ، فلا تعتمد كثيراً على ماتراه أو تسمعه وإنما تعتمد على هذه الحاسة السادسة . ومن المؤكد علمياً أن إدراك المرأة أصدق من إدراك الرجل ، وإحساسها بالأحداث القادمة أوضح من إحساس الرجل . وهناك ألوف التجارب فى حياتنا العادية تؤكد صدق فراسة المرأة .

ومنها السيدة پنيلوب إحدى شخصيات الأوديسة الإغريقية . .

لقد سافر زوجها إلى القتال . ولم تعد تسمع عنه شيئاً . وكان من السهل أن تؤمن أنه مات . أن تختار أحداً من عشرات الشبان الأغنياء الذين يريدون الزواج منها ، ولكنها آمنت إيماناً قاطعاً بأنه لم يمت ، وبأنه سوف يعود ، وأن هؤلاء الفرسان سوف . يموتون بضربات سيفه عندما يعود ..

وانتظرت عشرين عاماً . إيمانها لم يتغير . ولكن على أى أساس أقامت هذا الإيمان ؟ لا يمكن أن يكون ذلك مبنيًا على المشاهدة أو الاستنتاج مما تسمعه من أخبار الذين ذهبوا ولم يعودوا .. إنها اعتمدت على حاستها السادسة .

وكلما أصبح الإنسان أكثر صفاء . وكلما كان الإنسان أكثر إيمانا بشيء ، وكانت حاسته السادسة أقوى .. كان أقدر على أن يرى بغير عينيه ، وعلى أن يسمع بغير أذنيه ، وأن يدرك بغير عقله .. وهذا هو الخلاف الجوهرى بين الرجال والنساء وبين الكافرين والمؤمنين : هذه الحاسة التى وراء كل الحواس الأخرى !

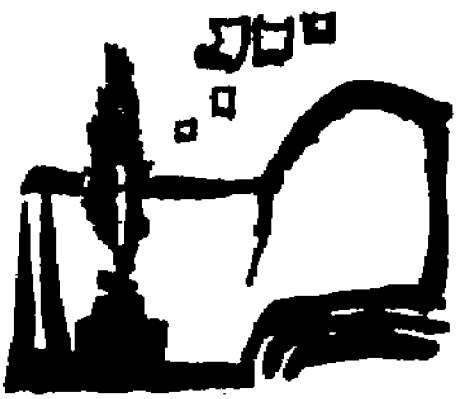

الخلاعة شيء آخر

لا أعتراض على الحرية التى تمارسها طالبات الجامعة فى اختيار الألوان والتفصيلات المختلفة للفساتين؛ ولكنى أعترض جداً على أن تكون الفساتين خليعة . . على أن يكون فوق الركبة بشبر .. وبشبرين عندما تجلس . وبثلاثة أشبار عندما تلتقط كتاباً يسقط على الأرض ــ عادة ــ عندما يكون هناك طابور من الطلبة جالساً على الحشيش !

أعترض وأكرر اعتراضى .. فهذا شيء لا يليق بالجامعة ؛ لا أقصد بمبانى الجامعة . ولكن بروح الجامعة ؛ وهى طلب العلم والبحث والتعب والبساطة والزهد فى كثير من المظاهر . وإذا لم تكن الطالبات زاهدات . فيجب ألا يدفعن الطلبة بعيداً عن الزهد والانشغال بالدراسة .

لست متزمتاً ولكن فى نفس الوقت لست مشجعاً للميوعة ، ولا مشجعاً لأن تتحول الطالبات إلى « شماعات» أزياء . ولا أن تتحول قاعة الجامعة إلى عرض ولا أن تتحول النظرات من الكتب إلى السيقان العارية والصدور العارية والوجوه المغطاة بأكداس من الأبيض والأحمر والأسود . .

ومنذ أشهر ذهبت إلى جامعة برلين ، فأحسست أنها جامعة شرقية أقصد جامعة « محافظة » المظهر . فالأزياء طويلة معقولة ، والأكمام طويلة ، والفتيات بسيطات ، فكل واحدة ، قد تأبطت عدداً من الكتب . وكل شيء يدل على أن الجو جاد ، وأن الروح جادة ، وأن هؤلاء الفتيات يطلبن العلم ، ويحرصن على طلب العلم ، لأن العلم حياة ،

والذى لا علم له لا حياة له . فالعلم ضرورة . والعمل ضرورة .

ولذلك أنا أرحب بالدعوة التى تتزعمها لجنة النشاط الاجتماعى بكلية زراعة القاهرة . فقد تلقيت منها برنامجاً لمناقشة توحيد الزى الجامعى . « بقصد تبسيط الزى بما يتلاءم مع الحياة العلمية والدراسية . ومحاربة الإسراف وتخفيف الأعباء الاقتصادية للأسرة . والقضاء على الأزياء غير المناسبة لحرمة الجامعة ، وإذابة الفوارق الشكلية بين الطلاب » .

أما فيما يتعلق بالطلاب فلم أجد لا فى جامعة روما ولا فى جامعة برلين البنطلونات المخنوقة الخانقة . ولم أجد الشعور المسترسلة الخنفسائية . لقد كان عدد الخنافس قليلا ولا يلقى إلا الاحتقار والازدراء .

ويجب أن نتساءل الآن جميعاً : ما هو المطلوب من الطالب والأستاذ وأولياء أمور الطلبة . ومن كل مواطن فى الجامعة أو خارجها ؟

المطلوب بوضوح وبإصرار : المزيد من الجد . ومن الجدية . ومن العمل ، ومن المسئولية والشجاعة فى مواجهة الواقع .. وأن نتجاوز مرحلة الشعور بالذنب العميق والندم .. وأن نعمل ، وأن نعمل ، وألا يشغلنا عن العمل شىء !

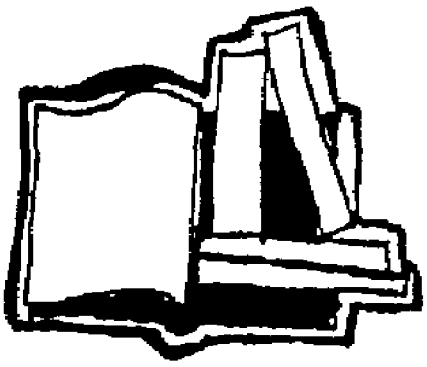

أداء الواجب كمال أنشده

لا نحن مرفهون .. ولا نحن أولاد ذوات .. ولا ولدنا والملاعق الذهبية فى أفواه الخدم والحشم حولنا .. وإنما أناس عاديون .. ومن بيئة تعانق فيها الشرف والفقر ، فى أعماق الريف المصرى !!

فإذا ما طلبت من الذى يصنع الحذاء ألا ينسى فيه المسامير .. وإذا طلبت من الذى يرصف الشارع ألا ينسى سد النقر .. ومن الذى يأتى بالماء ألا ينسى قطعة الثلج .. ومن الذى يبيع البرتقال ألا يغش .. ومن الذى يكنس الشارع ألا يترك فيه الزبالة ، ومن الذى يصنع الكبريت ألا ينسى رؤوس الكبريت . فإننى هنا لا أشكو أحداً إلى أحد .. وإنما نحن نتشاكى .. نشكو أنفسنا إلى أنفسنا ..

ولست مترفاً ولا باحثاً عن الكماليات .. وإنما أطلب الكمال .. أطلب من الذى يعمل أن يتقن عمله .. فهذه « النقر » فى الشوارع تهم من يمشى على قدميه ، لكنها لا تهم من يركب السيارة . ومعظم الناس مشاة .. غير أن أداء الواجب على « أكمل » وجه هو الذى يهمنى .. فالذى يرصف الشارع يجب أن يتقن الرصف .. والذى يكنسه يجب أن يحسن الكنس .. والذى يمشى فى الشارع يجب أن يراعى علامات المرور .. والذى يصنع الخبز ، والذى يصنع الفول .. وكل من يعمل شيئاً ، يجب أن يتقنه . إنها ليست الكماليات هى التى تهمنى .. وإنما الكمال هو الذى أنشده ..

وإذا جاءنى كوب الماء ليس نظيفاً فإننى أطلب من الجرسون أن

يأتى به نظيفاً.. لأنه من الضرورى أن يؤدى ما هو واجب ، وما هو حتى .

وفى نفس الوقت أعلم علم اليقين أن لنا إخوة وأبناء يعيشون على الجبهة لا يجدون الماء المثلج الذى نجده ، ولا الظل الذى ننام فيه .. ولا هذه المسافات الواسعة التى نرتع فيها من شارع إلى شارع ومن مدينة إلى مدينة .. إن هؤلاء الجنود الأبطال هم الذين ارتضوا الشمس لننعم نحن بالظل .. وهم الذين ارتضوا الخنادق لننعم نحن بالنسيم العليل فى بيوتنا .. وهم لا يجدون الماء الذى نجده .. ولا أكواب الزجاج التى نشرب فيها ..

إننى أعلم هذه التضحية العظيمة التى يبذلها طواعية وعن طيب خاطر إخوان لنا أعزاء علينا ..

وعلى الرغم من ذلك فإننا جميعاً يجب أن نتمسك بكل ما هو واجب وبكل ما هو طريق إلى كمال العمل وكمال الإنتاج . . تماماً كما أن هؤلاء الجنود قد تمسكوا بأداء الواجب على أكمل وجه .

وإذا نحن جميعاً حرصنا على أداء الواجب .. مدنيين وعسكريين .. فى الصغيرة والكبيرة ، على كل المستويات ، فلا خوف علينا .. ولا خوف على قضيتنا !

نكتة قديمة

هذه النكتة لن تتكرر .. فقد كانت أم العريس عندما تذهب لخطبة عروس لابنها تتحسس العروس بيديها ، وفى أماكن مختلفة من جسمها عينى عينك . وكانت أم العروس ترى أن هذا طبيعى. وكانت العروس تتوقع هذا من حماتها المقبلة . . فكانت الحماة المقبلة تحتضن العروس كما يحتضن رجال الشرطة بعض المشبوهين لكى يكتشفوا إن كانوا يحملون سلاحاً تحت ملابسهم .. وكذلك الحماة تبحث عن هذه الأسلحة التى تخفيها الأنثى تحت ملابسها ..

فتتأكد من وجود صدر ممتلىء أو فارغ ، تتأكد من وجود أرداف طبيعية ! فالحماة كتاجر جاء يشترى لحماً . . وتاجر اللحم يقلب « الذبيحة » ويعرف أين العظم وأين اللحم والشحم . .

وأكثر من هذا تفعله أم العريس ، فإنها تفتح حقيبتها ، وتعطى العروس قطعة من سكر النبات أو عود قصب لتتأكد من أن أسنان العروس سليمة ، وأنها لا تضع طاقماً صناعيا .. ثم تحاول أن تقترب منها أكثر وأكثر لتتأكد إن كان لفمها رائحة كريهة .. وفى هذه الأثناء تشد شعرها لتعرف إن كان طبيعياً أو بار وكة ..

هذه النكت التى كانت تؤديها أم العريس بحسن نية ، انتهى عهدها ! انتهى ولن يعود . فلم يعد هناك شىء طبيعى ، لم يعد هناك سلاح واحد من أسلحة المرأة ليس مصنوعاً عند الحلاق أو عند الترزى أو عند شركات الكاوتش أو البلاستيك !

انتهى عصر التقليب فى الذبيحة قبل زفافها إلى العريس . انتهى !

فقد تولت شركات التجميل سد الفراغ بين الأسنان . ونفخ الصدور والأرداف ، وتعلية الكعوب . وإطالة الشعور والرموش والأظافر ووضع ركبتين من النايلون الناعم لتخفى عيوب الركبتين الطبيعيتين ..

ولن تجرؤ حماة فى المستقبل على تقديم سكر النبات إلى أية عروس ولا حتى تقديم أصابع الملبن . لن تجرؤ . فقد أصبح طبيعياً . أصبح من الجمال أن يكون جمال المرأة مرسوماً مدروساً صناعياً . هذه حقيقة نهائية .

ولن تجرؤ أم العريس على أن تفتح فمها بعد اليوم حتى لا يقع طاقم الأسنان من بين شفتيها ؛ ولن تصطدم بالعروس لأنها لن تحس بشىء .. فالكاوتش عندها لا يحس بالكاوتش عند غيرها ..

انتهى عصر الجمال الصادق .. ودخلنا فى عصر الجمال الكاذب ، عصر التكنولوجيا فاستريحى يا أم أى عريس !

صيد الثعابين كارثة

لو كنت من أبناء الهند لذهبت إلى مارلين ديتريتش هذه وأطلقت عليها الرصاص وضميرى مستريح . فمارلين ديتريتش مسئولة عن بعض الكوارث التى أصابت الهند فى السنوات الأخيرة . فهى قد ظهرت فى أحد أفلامها فى يدها حقيبة من الجلد .

ولما سئلت فى الفيلم من أين اشتريت هذه الحقيبة قالت : إنها هدية من صديق مليونير . ولما سئلت : وأين يسكن هذ المليونير ؟

قالت : إنه مليونير هندى ! ولما سئلت عن نوع الجلد الذى صنعت منه هذه الحقيبة ، قالت : إنها من جلد الثعابين !

ومن أربعين سنة أصبحت جلود الثعابين مطلوبة فى أوربا وفى أمريكا .

وأصبحت الحقائب المصنوعة من جلد الثعابين حلماً من أحلام كل سيدة غنية ، أو تريد أن تبدو غنية . وأصبحت الأحذية من جلد الثعابين موضة ، أحذية السيدات والرجال المصنوعة من جلد الثعابين موضة أيضاً ، ولاتزال موضة حتى الآن ..

وكان من نتيجة رواج صناعة الجلود الثعبانية أن تكونت شركات عالمية لصناعة جلد الثعابين . وشركات أخرى لصيد الثعابين الهندية بصفة خاصة ، وتكونت مزارع لتربية الثعابين الهندية ، وتحول عدد كبير من المواطنين فى الهند إلى صيادين للثعابين . وأخذت الثعابين الهندية تتناقص مليوناً بعد مليون ، حتى لقد أصبح منظر الحاوى

الهندى فى شوارع عاصمة نيودلهى، شيئاً غريباً يتفرج عليه الهنود والسائحون الأجانب !

ولما نقص عدد الثعابين زاد عدد الفئران، فالثعابين هى التى كانت تلتهم الفئران . ولما زاد عدد الفئران تناقص محصول القمح ، وتناقصت كميات القمح الموجودة فى موانئ الهند .

لقد نشرت الصحف أخيراً أن الفئران فى الهند لو وزعت على الشعب كله (٥٠٠ مليون نسمة) لكان نصيب كل مواطن هندى ، بما ذلك الأجنة فى بطون أمهاتهن ، خمسة فئران . ففى الهند وحدها ثلاثة آلاف مليون فأر . والصحف تقول أيضاً إن القمح الذى تلتهمه الفئران كل سنة أكثر بكثير من المعونة الأمريكية !

وهناك طريقتان للتخلص من هذه الكارثة : الأولى أن يكف الهنود عن صيد الثعابين ، بل أن يتعلموا تربيتها .. والطريقة الثانية هى أن يفكر الهنود فى أكل اللحوم . فالهنود لا يأكلون اللحوم مطلقاً . وإذا فكروا فى أكل اللحوم فليبدءوا بالفئران ... !

ولو حدثت هذه الكارثة فى الصين ، لأكل كل أبناء الصين الفئران ، ومارلين ديتريتش .. ثم امتنعوا عن أكل القمح !

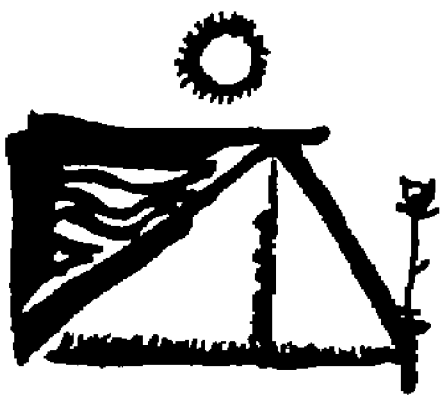

عصابة خفيفة الدم

مهما كانت قدرتك على الملاحظة فأنت لا تستطيع أن تلاحظ كل شيء .. ولا أن تلاحظ نفسك وأنت تلاحظ الآخرين !

هذا المعنى هو الذى جعل أحد رجال المباحث المشهورين جداً فى إنجلترا يقع ضحية عصابة خطرة . ولكنها خفيفة الدم . فهذه العصابة الدولية عبارة عن أربعين رجلا وامرأة .. يقومون برحلة واحدة فى سيارة واحدة ، وتحت اسم شركة سياحية معروفة ، ثم ينزلون فى فندق واحد ، ويسرقون هذا الفندق . ولم يستطع البوليس أن يهتدى إلى اللصوص . ولم يتصور أحد أن هؤلاء النزلاء الأربعين هم عصابة واحدة .

وتكررت حوادث السرقة فى أوربا وأمريكا .

فى أول ليلة يوزع اللصوص أنفسهم حسب خطة موضوعة .. بعضهم يذهب إلى المطعم ؛ وبعضهم يذهب إلى البار ، والباقون يفتشون غرف النزلاء الآخرين ، وثلاثة منهم يبحثون عن أموال الفندق . وبعد يوم أو يومين تختفى كل أموال ومجوهرات النزلاء وخزانة الفندق . وتنبه أحد رجال المباحث إلى هذه العصابة . وبدأ يساوره الشك عندما بدأ ينظر إليهم بدقة ؛ فقد لاحظ أن ملابسهم مختلفة . ولا يوجد اثنان من الرجال أو النساء يتشابهان فى شيء . وهذا غير طبيعى ، فلابد أن يتشابه اثنان أو ثلاثة فى الزى . ولاحظ أن أحاديث الأزواج فى غاية المرح والسعادة . وكتب رجل المباحث فى مذاكراته أن هذا غير طبيعى

ولاحظ أنهم جميعاً يدخنون ويشربون .. وهذا غير طبيعى .. وقرر فيما بينه وبين نفسه أن هذه هى العصابة

وعاد رجل المباحث إلى غرفته ليجد رجال العصابة قد انتظروه تحت السرير. أما لماذا شكوا فى أمره . فقد لاحظوا عند تفتيش غرفته ، أنه لا يوجد بها ورقة ولا قلم ولا شىء يدل على شخصيته ؛ واستبعدوا أن يكون لصاً مثلهم ؛ لأن اللص فى حاجة إلى أوراق وأقلام وملابس تخفى حقيقة شخصيته . ولكن هذا الرجل لأنه مطمئن إلى طبيعة عمله ليس فى حاجة إلى دليل . ولأنه حريص فهو يخشى أن يقع شىء فى أيدى اللصوص !

وربطوا رجل المباحث فى السرير ؛ وهربوا ..

لقد فاته أن يلاحظ أنهم كانوا يلاحظونه أيضاً !

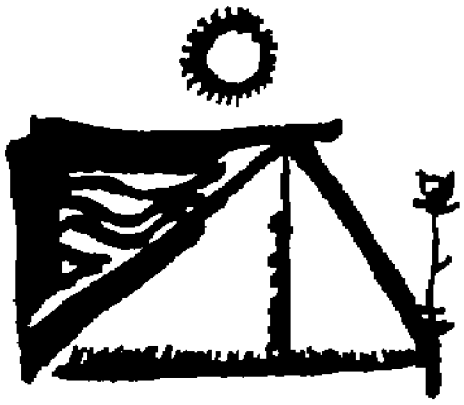

سيف الرشيد

خناقة عمرها ١٧٠ سنة بين رجال القانون الألمانى ورجال الآثار المنسوبين .. وسبب الخناقة هو هذا السيف الذهبى الذى بعث به الخليفة العباسى هارون الرشيد إلى الملك شارلمان منذ نحو ١١٥٠ سنة .

وكثيراً ما أرسل الخليفة العباسى هداياه إلى الملوك والأمراء فى العالم وكان يريد بذلك أن يؤكد صداقته ومودته ؛ وأن يبين فى نفس الوقت أن العرب على درجة كبيرة من الحضارة .. وقد كان العرب متحضرين .. بل أكبر الشعوب حضارة وتقدماً فى الآداب والفنون والعلوم المعروفة فى ذلك الوقت .

ويقال إن هارون الرشيد قد أرسل إلى « صديقه » الملك شارلمان أعظم ملوك أوربا ؛ وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة هدية ضخمة : فيل يركبه أحد الرجال ؛ وفى يد هذا الرجل ساعة مائية معقدة التركيب ، وسيف من الذهب . وظل هذا السيف فى مكانه فى كنيسة مدينة آخن بألمانيا أكثر من تسعة قرون . وبعد ذلك بدأ السيف الذهبى ينتقل مع الملوك من مدينة إلى مدينة ، ومن كنيسة إلى كنيسة ، حتى استولى عليه النمساويون . ووضعوه فى أحد متاحف ڤيينا ، واستولوا معه أيضاً على كيس من الذهب ، ثم على نسخة مكتوبة باليد من الأناجيل الأربعة .. وهذه النسخة قد أقسم عليها الإمبراطور شارلمان يوم تتويجه .

وعندما أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا طالب بالسيف الذهبى .

واستولى هتلر على النمسا . وأعاد السيف الذهبي إلى المتاحف الألمانية . وأحس المؤرخون الألمان أن هذا السيف يستحق البحث والدراسة من جديد . ودرسوا السيف وحللوه ورسموه . وحققوا الخرافات الكثيرة التي تدور حول هذا السيف . والذي يقال إن لمسه يشفي من الروماتيزم وبريقه يشفي من الرمد . وإن المرأة العاقر إذا وضعته على صدرها ولدت أطفالا ذكوراً .

وبعد الحرب العالمية .. أعيد السيف إلى متاحف النمسا .

وسيف هارون الرشيد موجود الآن في متحف مدينة فيينا . ولكن أهل مدينة آخن الألمانية يطالبون بالسيف .

فقد ظهر بحث ممتاز لمحام ألماني اسمه « فريد ريش راموبه » يؤكد بالدليل القاطع التاريخي والقانوني أن سيف هارون الرشيد يجب أن يعود إلى الألمان .. وقد تمضي ١٧٠ سنة أخرى قبل أن يتفق العلماء والمؤرخون والساسة على شيء !

وأقترح أن تبعث الحكومة النمسوية بهذا السيف إلى بغداد .. لأنه من المؤكد سيف عراقي . وبذلك تكون هذه « سابقة » طيبة لإعادة السيوف والذهب إلى أصحابها الأصليين .. وبذلك نساهم في تحقيق السلام بين النمساويين والألمان اليوم وغداً !

المحبة الإنسانية ممكنة

آثار أبو سمبل هذه من أمجاد مصر الفرعونية . . ومن أهم معالم عصور رمسيس الثانى . ذلك الفرعون الذى حكم ٦٧ عاماً . وعاش أكثر من مائة سنة . وترك وراءه مائة من الأبناء وخمسا من الزوجات وعشرات من العشيقات . . وترك وراءه تاريخاً طويلا ملحماً ثرثاراً لأعماله البطولية . فالذى سجله على الصخور لانتصاره فى معركة قادش إذا عرفناه على الورق يملأ صفحات كتب ضخمة .

ولكن رمسيس الثانى كان حاكماً عظيما . وآثار أبو سمبل هذه من أروع أعماله الفنية والتاريخية الباقية . وإذا كان الصخر قد استطاع أن يبقيها حتى اليوم . فإن العلم الحديث وتعاون الشعوب جميعاً قد أضافا عمراً جديداً . فقد نقلها من تحت إلى فوق . . فرفعها عن مستوى مياه النيل . . وانتشلها من الغرق الأكيد والنسيان السريع . .

وإذا كان رمسيس الثانى قد سجل تاريخه على هذه الأحجار بأصابع الفنانين والمهندسين المهرة . فإن الإنسانية الحديثة قد سجلت لنفسها معنى جديداً . . معنى نتمنى أن نراه بيننا فى كل المجالات الأخرى . . فقد سجلت الإنسانية معنى التعاون من أجل الفن .... والحقيقة التاريخية المشتركة . . فإن شعوب العالم التى أنقذت هذه الآثار ، قد أنقذت سمعة الإنسانية نفسها . . فنحن لم نعد نعرف إلا التعاون من أجل الدم . . ولم نعرف إلا الاتفاق على الورق

حتى لا يقع دم .. ولكن الاتفاق المخلص والتعاون الصادق ، قد انفرد هذا الحدث التاريخى الجليل بتجسيده ..

فالأصابع التى رفعت هذه الكتل الهائلة من الوثائق التاريخية هى أصابع العلم والفن وروح الأخوة ، فنحن — إذن — لم نرفع صخوراً .. إننا رفعنا شعاراً جديداً حقيقياً وقوراً حكيما : هو أن المحبة الإنسانية ممكنة .. والتعاون العالمى ممكن .. وبلادماء ولا نار !

ولاشك أن هذا الحدث « العلمى » يعد من مفاخر كل الهيئات الألمانية والسويدية والفرنسية والإيطالية العالمية التى ساهمت فيه ، ومن مفاخر وزارة الثقافة المصرية .. فقد كان الرأى العام فى العالم كله أن معبد أبو سمبل لن يكون آخر الآثار التى ابتلعها النيل أو البحر ..

وفى « قاموس الحضارة المصرية » الذى نشره جورج بوزنر — سنة ١٩٦٢ — تحت كلمة « أبو سمبل » وهى أول كلمة فى القاموس نجد هذه العبارة : وهذا المعبد لا يمكن تحريكه من مكانه لأنه منحوت فى الجبل ولذلك فهو مهدد بخطر الغرق فى الماء عندما يقام السد العالى ! وأنقذنا المعبد ..

وأضاف العلم الحديث إليه معجزة أخرى جنوب السد العالى !

أول طالب
يزوغ فى العالم

تحت هذا العنوان نشرت مجلة « التمبو » الإيطالية أن أحد العلماء قد عثر على مخطوطة قديمة ، هى عبارة عن رسالة بعث بها أب إلى ابنه والأب يعيب على الابن أنه لا يذهب إلى المدرسة بانتظام ، وأن أساتذته يشهدون بذلك ، وأنهم قد ظنوا فى أول الأمر أنه مشغول بإعداد قصيدة طويلة ، ولكنهم لم يسمعوا من هذه القصيدة بيتاً واحداً .. ويقول الأب إنه صديق الأساتذة ، ولا يرى أن نظم الشعر يشغل الإنسان عن دراسة الرياضيات والموسيقى والفلسفة .. ولا ينسى الأب أن ينبه ابنه إلى أن الشعر — خصوصاً الشعر — لا يفتح بيتاً ولا يكسو عرياناً ، ولا يطعم جائعاً ، وأن الذين اختاروا أن يضيعوا أوقاتهم فى وزن الكلمات ، قد هربوا من العمل المفيد — إنهم اختاروا أن يكونوا فقراء شرفاء .. ولكنهم فقراء !

وهذا الخطاب يرجع إلى القرن الرابع الميلادى ...

ولكن الدكتور مصطفى العبادى اكتشف ورقة بردى ترجع إلى القرن الثانى الميلادي ، وعليها رسالة بعث بها طالب فى جامعة الإسكندرية اسمه « نيل » إلى والده فى مدينة البهنسا . وفى هذه الرسالة يشكو الطالب من ارتفاع أسعار المعيشة ومن أزمة المساكن ، وأنه لا يزوغ من الجامعة ، وإنما الدراسة الجامعية لا تعجبه . وأنه لا داعى لإنفاق الأموال الكثيرة فى الدروس الخصوصية ، لأن الأساتذة الذين يدرسون فى الجامعة هم أنفسهم الذين يدرسون له خارج الجامعة .. وأن مستواهم جميعاً ضعيف ..

وأنه يشكر والده على الأموال والأطعمة التى بعث بها ، وأنه يطلب المزيد ..

ويجىء فى خطاب الطالب أيضاً أنه يعتذر عن كسر عربته التى يجرها حصانان ، لأنه قد اشترك فى سباق مع زملائه — وهذا يدلنا على أن الطالب من أسرة غنية .

ومن الغريب أن هذا الطالب يملك أحد العبيد .. وأنه يدفع هذا العبد إلى العمل فى بيوت الناس .. وأنه يتقاضى أجراً على ذلك ، وأنه ينفق هذا الأجر ، وأن العبد قد هرب .. وأنه ألقى القبض عليه ، ثم هرب من السجن .. ولم يشأ الطالب أن يطلب من والده أن يبعث له بعبد آخر ...

..إنها هى إذن نفس المشكلة القديمة .. فمنذ كانت هناك مدرسة ، كان هناك تزويغ من المدرسة ومن الدراسة .. ومنذ كان هناك تلامذة كانت هناك الشكوى من المدرسين .. وكان الرسوب فى الامتحان لا بسبب عدم المذاكرة ، ولكن بسبب ضعف مستوى الأساتذة وأزمة المساكن وإغراء اللعب !!

إنها المشكلة القديمة : حيث يكون هناك واجب ، يكون الإهمال فى أداء الواجب ، والهرب من الواجب .. والهرب من حمل المسئولية ... وهذا قديم .. أقدم من مخطوطة روما .. وأقدم من أوراق بردى الإسكندرية !

الحب الشريف
أصله عربى

لو كان عندى قبعة لرفعتها تحية للشاعر الإنجليزى « روبرت جريفز » الذى كتب مقالا فى مجلة « لايف » يقول إن الشهامة والفروسية والشجاعة والتضحية فى سبيل الحب ؛ كلها معان استوردتها أوربا من العالم العربى . وكلمة « الرومانتيكية » التى نستخدمها الآن للدلالة على العفة والحب العنيف كانت لها معان أخرى فى أوربا .

فكان من معانيها الخشونة والعنف وعدم الاهتمام بالمرأة وإنما الاهتمام بالرجل .. أى اهتمام الرجل بالرجل !

والعرب هم الذين علموا أوربا كيف تحب وتعف ، وكيف يهون الموت من أجل المحبوبة . والعرب هم الذين ركبوا الخيول البيضاء ، ووقفوا بها تحت شباك المحبوبة فى انتظار إشارة البدء فى الهرب بها بعيداً عن الأب والأم والإخوة ، وعن المجتمع كله . ولاتزال الفتاة فى الغرب وفى الشرق تحلم بذلك الفارس الأسمر الذى يمتطى حصاناً أبيض ويهرب بها متحدياً كل الناس من أجلها !

وحتى لو اتفق الأب والإخوة وكل الناس مع فتى الأحلام على الزواج من محبوبته فإن المحبوبة تفضل أن تكون هناك عقبة . أن تكون هناك معركة لكى يتغلب عليها الفارس .

لكى يتعب ويتعذب من أجلها . والتعب والعذاب هما أغلى مهر يقدمه محب لمحبوبته .

وليست حفلات الزفاف والموسيقى والأعيرة النارية والفستان الأبيض إلا صورة مهذبة لما كان يحدث فى حفلات الزفاف من قبل .. عندما كانت هناك معارك بين القبائل، وعندما كانت القبائل تدق طبول الحرب . وما الفستان الأبيض إلا الحصان الأبيض، وإلا السحاب الأبيض . وإلا أشعة القمر الحالمة !

ولا توجد فتاة تتردد فى أن تتمخطر فى الزفة . ولكن معظم الرجال يترددون .. وأنا لم أندهش عندما سمعت عن زوجة قررت ، بعد عشر سنوات من زواجها ، أن تقيم لنفسها زفة فى بيتها ، وأن ترغم زوجها على أن يمشى إلى جوارها ، على الرغم من أنه لم يكن هناك أحد غيرهما ..

إن المرأة ماتزال تحلم بالرجل الذى يخطفها على حصان أبيض أمام الناس ، وعلى الرغم من الناس !

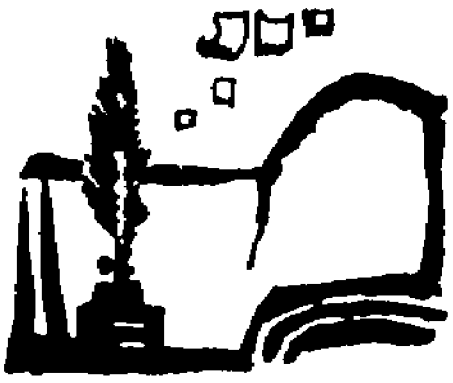

عندما خدعته

جاءنى يطلب عدداً من خطابات التوصية إلى أصدقائى فى أستراليا . فقد قرر أن يعمل هناك . ونظرت إليه من جديد كأننى لا أصدق ما يقول أو كأننى لا أصدق أن شاباً مصرياً قرر أن يعمل وحده ودون معونة من أحد فى هذه القارة السعيدة — وأنا أستخدم هذه الكلمة الأخيرة استخداماً حقيقياً . فهى فعلاسعيدة وغنية . وهى تتسع لمئات الملايين من الناس ؛ مع أن سكانها عشرة ملايين فقط ! ورأيت أمامى شاباً نحيفاً ، متوسط القامة . أسود العينين ، وكان شعره منكوشاً . فلم يعجبنى هذا الإهمال ؛ ولاحظت أنه قد أمسك إحدى يديه بالأخرى — فلم يعجبنى أنه خائف !

وكتبت له عدداً من الخطابات إلى أصدقائى من أستراليا ، وإلى أصدقاء من العرب .. وحاولت أن أفسر له سر سعادتى به .. عندما لمعت فى عينى أضواء مدينة سيدنى الجميلة وشوارعها الرشيقة ومحلاتها الفخمة . وهواؤها المنعش الذى يهب من القطب الجنوبى ، فيقابله الناس بالبلوفرات الصوفية الغليظة والآيس كريم .. وبدأ صدرى يعلو ويهبط كأننى أستنشق عبير مدينة كانبيرا الهادئة الوقور ..

وأهم خطاب كتبته كان بعنوان : مستر جورج تشارلز ويليام . وقلت له : إن هذا هو أهم خطاب ، ويجب أن تبحث عن هذا الرجل ، فإذا لم تجده فافتح الخطاب وابعث لى به من جديد !

ومضى شهر وشهر .. وستة أشهر .. وجاءنى خطاب من هذا المواطن الشاب . وشعرت بشىء من الخجل ، وبشىء من السرور . فقد سرنى

أنه ذهب وأقام وصادق واستراح ونجح ، وأخجلنى أننى خدعته ، فهذا المستر جورج تشالزويليام لاوجود له .. لا أحد يهذ الاسم الغريب . وإنما هذا الخطاب كان موجهاً منى لهذا المواطن المصرى ، فقد قلت له فيه : « أنت الآن لست فى حاجة إلى معجزة لكى تعيش . أنت موجود . وهذا يكفى . وأنت لم تسقط بالباراشوت فى قلب الجليد ، وإنما أنت فى قارة غنية متحضرة . وأنا عندما جئت إلى أستراليا سنة ١٩٥٩ كنت المصرى الوحيد . ولكن كان هناك ٣٠ ألف عربى . وأنت شاب ومندوب دولة عريقة ، ولها مستقبل عظيم . وفى أستراليا الآن سفارة لا تلجأ إليها إلا عند الضرورة. وشبابك وعزيمتك وصبرك وأملنا فيك يدفعك إلى أن تكون مواطناً صالحاً . إن خطابى هذا ليس شيكاً بلا رصيد .. فشبابك هو أعظم رصيد ! »

وأنا فى الحقيقة لم أخدعه ، وإنما أردت أن أكون أول من يبعث إليه بخطاب بدون طابع بريد !

اليد اليسرى ليست مأساة !

لسبب غير معروف الآن كان الإنسان الأول فى العصر الحجرى يستخدم يده اليسرى بدلا من اليمنى .

ومن المعلوم الآن أن خمسة فى المائة من الناس فقط يستخدمون اليد اليسرى فى الكتابة وفى العمل أيضاً . وكان الناس يظنون فيما مضى أن الشياطين فقط هى التى تستخدم اليد اليسرى ... لا لشىء إلا لأن الشياطين يجب أن يكون لها أسلوب مختلف فى كل شىء : فلها عين واحدة فى منتصف الرأس ، ولها أسنان من نار ، ولها ذيل كالثعبان ، ولها أنفاس كالدخان ، ولها أذنان كالحمار .. إنها كائنات عجيبة فى كل شىء!

ومن الملاحظ أيضاً أن الطفل يستخدم يديه معاً ، ويتعلم بعد ذلك أن يستخدم اليد اليمنى . وبعض الأطفال قد أصر — لسبب غير معروف على استخدام اليد اليسرى . وفشلت كل محاولة لأن يستخدم اليد اليمنى!

ولكن الذى يكتب بيده اليمنى : والذى يكتب بيده اليسرى ، لا بد أن يهرش الجانب الأيسر من الرأس أيضاً . وأول من اهتدى إلى هذه الحقيقة هو أشهر عبقرى كان يرسم ويكتب بيده اليسرى : دافنشى ، وهو الرسام المثال الفيلسوف المهندس الطبيب الموسيقار المخترع العبقرى فى كل شىء !

وبرنارد شو كان يكتب بيده اليسرى أيضاً ، وكان يقال عنه إنه يسارى من أصابع رجليه حتى أصابع يديه .. وكان يقول هو : بل يسارى بعد ذلك أيضاً !

والفيلسوف بنيامين فرانكلين كان يكتب بيده اليسرى أيضاً . وكان يقول : إننى أحتفظ بيدى اليمنى لاستقبال الناس فى أثناء عملى !

وشارلى شابلن أيضاً .. والملاكمان : تيريل وميلدنبرجر .. ولاعب التنس : درويني . وهناك فرق للملاكمة كل أفرادها يستخدمون اليد اليسرى . وهذه الفرقة فى روسيا وفى ألمانيا الديمقراطية ، وهى فرق محيرة وتبعث على ارتباك الخصوم .. وغالباً تفوز فى المباريات الدولية !

ولذلك لا أرى مسوغاً لفزع المواطن المصرى أبى الأبناء الثلاثة الذين يكتبون باليد اليسرى ، ولاداعى — أبداً — لأن يقسو على أبنائه ، ويرغمهم على تناول الطعام باليد اليمنى ، فيتساقط الطعام والدموع معاً .. ويتمزق قلبه حسرة عليهم !

فالفنان العظيم اليتيم اللقيط دافنشى كانت يده اليسرى تساوى كل الأيدى اليمنى واليسرى فى كل عصره ، ولم تكن مأساته الحقيقية هى أنه يكتب باليسرى على خلاف الناس ، وإنما لأنه ابن غير شرعى ولم يجد من يضربه على يده اليسرى ويبكى عليه بعد ذلك !

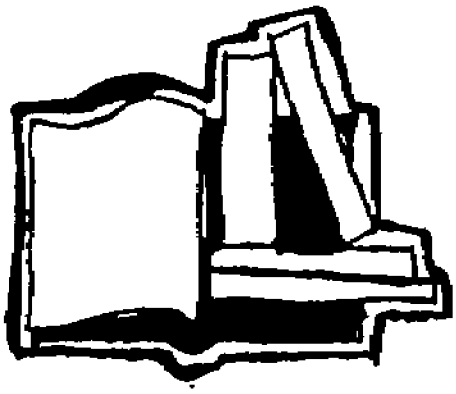

الزى المناسب

لا أعترض – مثلا – على قزقزة اللب . ولكنى أعترض أن يكون ذلك فى الأوبرا أو فى السينما .

ولا أعترض أيضاً على الفساتين القصيرة . ولكنى أعترض على أن يكون ذلك فى الجامعة حيث الروح الجادة . وحيث الرغبة الصادقة فى الانصراف « إلى » العلم ، وليس الانصراف « عن » العلم .

وإذا كان الدين يطلب إلينا أن نخلع أحذيتنا عندما ندخل إلى المسجد فليس فى ذلك دعوة إلى الحفاء وخلع الأحذية والمشى على لحم القدمين !

وإنما كل مكان له الزى المناسب . فالمايوه للبلاج ، وقمصان النوم للبيت ، والفساتين القصيرة للشارع ، والملابس المحتشمة المحترمة للأماكن المحترمة الجادة ، مثلا . وأنا لا أزال أعتقد أن الجامعة مكان يستحق الاحترام ، ويجب أن يصانَ احترامه وتقديره ، فهى مكان مقدس فى كل الدنيا .

حتى إنجلترا التى اخترعت « المينى جيب » لا تسمح لطلابها بأن يكونوا خنافس ، ولكن ليس لديها أى مانع فى أن يتحولوا خارج الجامعة إلى خنافس وقطط و كلاب .. وأية حيوانات أخرى تعجبهم !

وأذكر أننى فى أول مرة ذهبت إلى باريس كانت فى رأسى صور سياحية مجنونة ، فقد تصورت أن الهواء فى باريس زفرات وأن المطر دموع ، وأن أغصان الشجر تلتف فى عناق دائم ، وأن الناس يشتغلون بالعواطف . ولكن عندما أقمت فى باريس أسابيع عديدة

وجدت باريس شيئاً آخر : العلم والبحث والفن ، وألوف الكتب الجديدة ، ومئات المجلات الأنيقة . وقاعات البحث والأساتذة العظام فباريس ليست كباريهات ولهواً ولعباً ، ولكن هناك الجد ، وهناك للعب ، وهناك الجد أكثر !

وأخيراً أعترض على أن يدخل المواطنون دار الأوبرا بالقميص والبنطلون ، فليست هذه شعبية .. ولا هذه اشتراكية ، ففى الاتحاد السوفييتى لا يمكن أن يدخل أى مواطن الأوبرا أو المسارح أو حتى السيرك بالقميص والبنطلون ، فهذه جليطة صارخة ! والروس ليسوا جامدين ولا متزمتين ، ولكن هناك أصولا لكل شىء . فكل مكان له الزى الذى يتناسب معه .. القميص والبنطلون والميني جيب للشوارع والحدائق ، ولكن الملابس المحترمة للأماكن المحترمة .. ولا يمكن أن تكون الجامعة أو الأوبرا أقل احتراماً — فى نظرنا — من السيرك الروسى !

حيوان .. ولكنه
يختار زوجته !

الدماء التى تسيل فى كل العالم لم تمنع الناس من أن يتحابوا وأن يتزوجوا وأن يأتوا بالمزيد من الأطفال .. وتساقط القنابل والجنود لم يمنع الناس من أن يحرصوا عندما ينهضون من فراشهم على أن يلبسوا الحذاء وأن يتأكدوا من أنه مربوط جيداً .

والأرض تدور حول نفسها أمام الشمس . وسوف تدور سواء كانت هناك دماء أو طوفان يهلك الأرض ومن عليها !

وفى كل شارع طفل صغير يلهو بغطاء زجاجة ، أو يجمع الحصى من شاطئ البحر ، وأمه ترقبه بسعادة ، وترى فيه مكتشفاً عظيما ، أو عبقرياً جديداً . وتحس الأم — كل أم — بسعادة غامرة بأنها ولدت للإنسانية شيئاً عظيما ، وأنها أعطت زوجها هذا الطفل الذى لا يستحقه .. وكل الأزواج — من وجهة نظر الزوجة — لا يستحقون أطفالهم .. !

وبنفس الحماس الذى تنظر به الأم إلى طفلها .. وبنفس الاهتمام الذى يربط به الناس أحذيتهم .. وبنفس الدقة التى يصوب بها الجنود مدافعهم على أعدائهم ، يقف العلماء الروس والإنجليز فى خشوع شديد أمام زوجين من حيوانات « الباندا » فى حديقة حيوانات موسكو .. هذا الحيوان هو نوع من الدببة أبيض الرأس عسلى العينين .. الأنثى من بريطانيا واسمها : تشى تشى (٢٣٥ رطلا) والذكر من روسيا واسمه آن آن (٣٣٥ رطلا) ، والاثنان من الصين . وهما

الوحيدان اللذان يعيشان فى المهجر . وأمل علماء روسيا وبريطانيا وأمريكا أن يتزوج الاثنان لينجبا حيواناً جديداً . هو أول حيوان من نوعه ولد خارج الصين .

وفى مارس الماضى أخلى نصف طائرة نفاثة لكى تنقل الأنثى إلى موسكو . وفى موسكو حاول العلماء أن يقربوا بين العروسين فاقتربت الأنثى ودارت حول العريس . كما يفعل محمد على كلاى ، وقاست المسافة ، وهجمت على العريس تريد أن تضربه . وهنا تدخلت مقشات العلماء لإبعاد الاثنين .. ثم تجددت المحاولات ، وانتهت الجولة بعد دقائق ، وفقد العلماء كل أمل فى هذا الزواج السعيد .. وقال أحد العلماء الروس : يبدو أن التعايش بينهما مستحيل .. فهما من أصل صينى !

ورفض هذان الحيوانان أن يتزوجا بالإكراه .. وهذا فارق جديد بين الإنسان والحيوان .. فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يستطيع أن ينام مع أعدى أعدائه فى فراش واحد !

أب بالقطعة
وأب بالتعيين

فى المجتمعات البدائية عندما تلد الزوجة يهرب زوجها إلى الغابة ، وبعد أيام يذهب إليه أفرادا القبيلة يؤكدون له أن المولود إنسان وليس حيواناً . أى أن زوجته لم تكن على علاقة بحيوان آخر ، وأن المولود شبيه جداً به ، ومعنى ذلك أنه هو الأب الشرعى للطفل ..

وكثير من العادات البدائية أخفتها الحضارة الحديثة بأغشية رقيقة مهذبة ، فلا يزال هذا الشعور موجوداً بشكل ما عند الأب . فكل ما يصنعه عندما تلد زوجته أنه يشعر بشىء من القلق عليها ، وأحياناً يخفى قلقه فى أحد الأفلام ، ويترك الزوجة تصرخ وتلعن الطب والذكاترة والممرضات . وعندما تضع طفلها تعرف من اللحظة الأولى أنها أم ، وأنها تعذبت فى الحمل والوحم والولادة ، وأنها اجتازت اللحظة العجيبة ، وهى لحظة الولادة ، وهى أعذب أنواع العذاب .

وعندما يجىء الأب يتفرج على المولود تؤكد له الأم والأخوات والخالات والعمات أنه ــ أى الطفل ــ الخالق الناطق أبوه .. عينه وأنفه وشفتاه .. ولا يرى الأب عادة شيئاً من هذا كله . ولا يتساءل الأب عادة ما هو المقصود من هذه المقارنة بينه وبين قطعة من اللحم ليست لها أية ملامح !

وتعلم الأم بالغريزة أن زوجها يريد أن يقوم بمهمة الزوج فقط أما هى فعليها أن تكون زوجة وأماً . ولذلك تحاول بمجهود هائل أن

تنقل الزوج إلى وظيفته الجديدة . وهى وظيفة الأب . وذلك بأن تشغله بالطفل أو بالأطفال . ومتاعب الطفل وأمراضه وضحكته ولعبته ..

وإذا بالأب الذى لم يبذل أدنى مجهود فى أن يكون أباً. قد تحول بالتدريج إلى أب .. وأصبحت الأبوة نوعاً من الهواية . ولكن الأم تبذل جهداً آخر فى أن تجعله يتحول من الهواية إلى الاحتراف ..

ومن أب ينفعل عند كل طفل يولد ، أى أب يعمل بالقطعة. إلى أب موظف .. أب بالتعيين . وطريقة الأم هى أن تجعل الأطفال يتعلقون بأبيهم ويرتبطون به عند الأكل والنوم . بل إنها تقسو على أطفالها ليرموا أنفسهم فى حضن أبيهم ، فيقوم الأب فى هذه « المناورة » بدور رجل السلام ..

وكل المعارك التى تدور بين الأزواج عند ولادة طفل ليست إلا محاولة عنيفة من الزوجة أن تجعل زوجها أباً . وليس إلا إصراراً من الزوج أن يظل زوجاً . ولكن هذا الإصرار لا يلبث أن يلين أمام الكلمات التى تنتهى عادة بنون وألف ــ أى ابننا وطفلنا ووحيدنا وخلفتنا .. وهنا لا يملك الزوج إلا أن يكون أباً بالتعيين !

الهوسة الجماهيرية

التويست وكرة القدم وأم كلثوم والزار.. هى جميعاً عمليات غسل مخ صدمات كهربائية ، تدليك عقلى ونفسى .. غيبوبة عن الإحساس لتريحنا من الشعور اليومى بالتعب والتوتر النفسى .

وليس بالصدفة أن يقبل الناس فى العالم كله على الرقص المجنون .. على الجاز .. على الزار الحديث .. إن ضوضاء الموسيقى ترهق الأعصاب وحركات الالتواء العنيف الطويل ترهق الأجسام .. وبعد ذلك يسترخى راقص التويست وراقص الزار .. وهذا الاسترخاء يؤدى إلى الشعور بالارتياح .

وكثير من الذين يرقصون أو يذهبون إلى الزار ليستريحوا يدمنون الرقص ويدمنون الزار .. هذا الإدمان يضعف مفعول الرقص والزار ، ولذلك لم يكن غريباً أن يتجه الشبان فى أوربا وفى أمريكا إلى المخدرات..

فالمخدرات تشبع الاسترخاء الذى يعجز الرقص والزار عن تحقيقه ولهذا انتشرت المخدرات بين الشبان ، بين راقصى التويست وبين ضحايا الزار أيضاً !

وكرة القدم هى حماس جماهيرى صارخ .. وهذا الحماس الشديد يجعلنا متوترين . وهذا التوتر يهزنا باستمرار لكل لعبة وكل شوطة وكل هدف .. ويهزنا أيضاً إذا لم تكن هناك أهداف . فالمهم هو أن نهتز بعنف . والذى لا يتحمس إلى ناد رياضى تكون اهتزازاته وتوتراته

وصيحاته أضعف وأقل عنفاً ؛ ونحن حريصون على أن ننفعل بشدة ؛ ولذلك نختار أحد الأندية ونتحمس له .. نثور له ونثور عليه ، وسواء فاز النادى الذى نتحمس له أو لم يفز فإن الشحنة العاطفية لهذا النادى قد أرهقتنا .. ولكنها أراحتنا بعد ذلك .

وحفلات أم كلثوم أيضاً .. فالناس حريصون على مشاهدتها أكثر من أى وقت مضى .. السيدات يجدن فيها فرصة للظهور بفساتين وتسريحات جديدة .. والرجال يذهبون أيضاً وهم متحمسون لأم كلثوم .. وفى حماسهم لأم كلثوم نجدهم يتحمسون لألحان عبدالوهاب أو السنباطى أو بليغ حمدى .. وكل واحد يركز حماسه على ملحن معين .. وهذا التركيز يشعل فيه نار الحماس والتصفيق ، وفى هذه النار العاطفية الفنية تتطهر النفس من متاعب الحياة اليومية .

وكلما تعبت أعصابنا بحثنا عن « هوسة » جماهيرية لنغرق فيها عقولنا .. لنطفو بأجسامنا على بحر الحياة !